

مصادر عن رحلتى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده الى تونس

(6 ديسمبر 1884 - 4 جانفي 1885 و 9 - 24 سبتمبر 1903)

بقلم : المنصف الشنوفي

لقد قام الشيخ محمد عبده ، بصفته زعيم الإصلاح الديني والاجتماعي في البلاد الإسلامية برحلات قصيرة المدى عبر جملة من البلدان الإسلامية فزار تونس سنة 1884 بعيد توقف مجلة العروة الوثقى عن الصدور بباريس وزار تركيا سنة 1901 وزار تونس ثانية بعد أن عرّج على الجزائر في صيف 1903 وزار أخيرا السودان قبيل وفاته بشهور سنة 1905 (1) . هذا علاوة على أسفاره إلى أوربا حيث توقف لاستخلاص العبرة من تفوق الغرب وعن إقامته ببירות مدة نفيه إليها (1882 - 1889) .

ولقد كان قوام دعوته ، في الظن والإقامة ، هذا المنهج الإصلاحى وهو ان إصلاح الأمة الإسلامية وتجديدها لا يكونان إلاّ من طريق التعليم والتربية أولاً . ومن طريق السياسة أخيراً ، مما كان أصل التباعد والاختلاف بينه وبين

(1) راجع تفاصيل هذه الرحلات في تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لرشيد رضا ج 1 ص 846 - 879.

سنرمز الى هذا الكتاب بالاشارات التالية : تاريخ 1 : طبعة 1350 - 1931 . تاريخ 2 : 1344 - 1926 . تاريخ 3 : 1324 - 1907 .

السيد جمال الدين الأفغاني فلتن كان تجديد الأمة بإصلاح الدولة أدنى وأسرع — وهو مذهب الأفغاني — فإن الشيخ عبده كان يؤمن بأن تجديد الدولة بإصلاح الأمة أثبت وأدوم (2)

ولئن كانت الحركة الإصلاحية التونسية التي سنحاول في هذا البحث تحديد علاقاتها بالشيخ محمد عبده — أسبق في التاريخ (3) من الحركة التي تزعمها الأفغاني وعبده في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأعلق باصابتها الأصلية من حيث هي تونسية فلإنها كانت إلى منهج الشيخ عبده أقرب وبه ألق : ذلك أن العصاة الإصلاحية التي تزعمها الجنرال خير الدين والشيخ محمود قبادو عملت ، درءا لتطاول الغرب على السيادة التونسية ، على تركيز التجديد والنهضة على هذه الدعاة وهو أن لا سبيل لهدم التأخر إلا باسترجاع ما أضاعه الإسلام وما اقتبسه عنه الغرب — وهو سرّ عظمته وعزته — أي العلوم الحكمية والرياضية . فلا نهضة للإسلام والمسلمين إلا باستعادة هذه العلوم ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتباسها من الغرب بالنقل والتعلم . فكان تأسيس المدرسة الحربية بباردو سنة 1840 الحلقة الأولى من سلسلة أعمال إصلاحية تدعمت وتأصلت فيما بعد (4) .

(2) تاريخ I : ص 974 .

(3) لقد تظن الجنرال خير الدين (المتوفى سنة 1889) والشيخ محمود قبادو (المتوفى سنة 1871) إلى المبادرة إلى استخلاص العبرة من تفوق أوربا وتركيز الإصلاح على استعادة العلوم الحكمية والرياضية .

راجع كتاب : اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك . ط. تونس : 1868/1295 .

(4) كان خير الدين وقبادو والفضل في بناء اللبنة الأولى من صرح النهضة التونسية : فقد امتاز عهد المشير احمد باشا باي بتأسيس المدرسة الحربية ، والمكتبة الاحمدية (1840) وبحثوير التعليم بجامع الزيتونة (1842) وبرحلة رسمية قام بها الباي إلى فرنسا . واتصل هذا المجهود على يد المشير محمد باشا باي (1855 - 1859) بتنظيم المحاكم الشرعية (1856) وبمنح « عهد الامان » (1857) . وتمكن المصلحان خير الدين وقبادو في عهد المشير محمد الصادق باشا باي من انشاء المطبعة الرسمية وصحيفة « الرائد التونسي » (1860) . وسافر الباي محمد الصادق إلى الجزائر حيث عرض على نابليون الثالث نص الدستور الجديد الذي اعلن عنه سنة 1861 والذي جعل من المملكة مملكة دستورية برلمانية . وتبوأ خير الدين كرسي الوزارة الكبرى (1873 - 1877) فانجز جملة مشاريع خطيرة اهمها انشاء المدرسة الصادقية (1875) . راجع تاريخ احمد بن ابي الضياف : اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان : ج 4 و 5 و 6 طبعة تونس : 1963 - 1964 - 1965 .

فلا غرابة إذن في أن كان الإتفاق في المنهج الإصلاحي ممّا حداً بالمصلح المصري إلى أن يزور مرتين تربة من أشهر بنيها عبد الرحمان بن خلدون (5) . وبعد فلا يعزب عن الناظر المتفحّص ما لهاتين الزورتين من أهميّة : فعلاوة على حدوثهما في مرحلتين جوهريتين من تطوّر الشيخ محمد عبده فإنّهما تشهدان على ما يكنّه المصلح المصري من الودّ والعطف نحو الحركة الإصلاحيّة التونسيّة في ظرفين من تاريخها : الأوّل غداة انتصاب الحماية متمثلاً في مجهود الإصلاحيين من خريجي الزيتونة والمدرسة الحريريّة بباردو والثاني سنة 1903 متجسماً في تظافر الجهود والتحام جبهة كان من أبرز عناصرها خريجو المعهد الصادقي .

وقد جمعنا جملة مصادر تحدّد علاقات الحركة الإصلاحيّة التونسيّة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بالشيخ محمد عبده : وهي مصادر مطبوعة سنشير إلى أهميتها فقط ومصادر مخطوطة لم تنشر بعد سنثبتها كاملة أو مقتضبة .

اولا — الزورة الأولى :

أ) التباعد بين الأفغاني وبين عبده :

لقد وضع الأفغاني وعبده أسس دعوتهما الإصلاحيّة منذ التقائهما بمصر (1872 — 1879) وكان هدفهما تحرير الشعوب الإسلاميّة وتوحيدها . وأُطرد الأفغاني من مصر سنة 1879 وذهب إلى الهند فأُسّس سنة 1882 بكلكتة جمعيّة سريّة « جمعيّة العروة الوثقى » (6) وأُبعد عبده إلى مسقط رأسه بمحلة نصر

(5) لما سمي استاذ التاريخ بدار العلوم بالقاهرة ، اختار تفسير المقدمة لابن خلدون لجلالة قدرها: تاريخ I : ص 136 و ص 426

(6) لا شك ان جمعيّة العروة الوثقى رغم تحفظ رشيد رضا في تاريخه ، كانت على غرار الجمعيات الماسونية التي انخرط فيها الافغاني وعبده بمصر : راجع Jomier تفسير المنار و « دائرة المعارف الاسلاميّة » طبعة ثانية ، ترجمة الافغاني : ص 428 . الا ان انتماء الافغاني وعبده الى الماسونية لم يكن ليسلمهما الى الاتحاد والزندقة كما ذهب الى ذلك Elie Kedourie في مجلة : Orient عدد 30 — 1964 . ص : 37 — 46

بالصعيد لمقالات معادية للحكومة نشرت بالأهرام ثم رجع إلى مصر سنة 1880 وأصبح رئيس تحرير الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » واتهم بالمشاركة في ثورة عرابي فنُفي إلى بيروت في ديسمبر 1882 . وبعد مرور سنة تقريبا التحق بالأفغاني في باريس وأصدرا « مجلة العروة الوثقى » ما بين 13 مارس 1884 و 16 أكتوبر 1884 . وأُرسلت المجلة إلى أعضاء الجمعية في العالم الإسلامي وكان من أبرزهم الأمير عبد القادر الجزائري (7) ونخبة من زعماء الإصلاح بتونس سنتحدث عنهم بعد قليل .

وإن توقف مجلة « العروة الوثقى » عن الصدور يشكّل نقطة تحوّل جوهريّة في علاقات الأفغاني بعبده . وحكم رشيد رضا هو عين الصدق في هذا المقام : « فان السيد (الأفغاني) رجل دين وإن غلبت عليه السياسة والشيخ محمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدين » (8) . فلئن كان الهدف واحدا وهو درء التطاول الإستعماري الإنجليزي والفرنسي فان المنهج لتحقيق ذلك كان يختلف عند الزعيمين : فمحمد عبده لم يكن يرى الإصلاح من طريق السياسة — وهو مذهب الأفغاني — بل من طريق تربية الأمة وتعليمها . لذلك اقترح على الأفغاني — قبيل توقف المجلة عن الصدور وهما بباريس — هذا الاقتراح : « أن نترك السياسة ونذهب إلى مجهل من مجاهل الأرض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الأذكاء السليمي الفطرة فنربّهم على منهجنا ونوجه وجوههم إلى مقصدنا ، فاذا أتبح لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلّا ولدنا مائة قائد من قوّد الجهاد في سبيل الإصلاح ومن أمثال هؤلاء يرجى الفلاح . فقال له السيد : « إنّما أنت مشبّط » (9) أهـ .

(7) كان الأمير عبد القادر الجزائري نفسه مأسونيا فقد انخرط سنة 1864 بمحفل « الشرق الكبير » (الأهرام) مدة مروءه بالاسكندرية : ندين بهذا للسيد P. Bertholle عضو المحفل الماسوني بتونس : « قرطاج الجديدة وصلاح » لما صبح العزم على تأسيس محفل ماسوني جديد تحت عنوان « محفل الأمير عبد القادر » سنة 1956 .

(8) تاريخ I : تصدير الكتاب : ص : ن .

(9) تاريخ I : ص : 416 .

ولم يكن هذا الاقتراح مجرد أضغاث أحلام . من قبل عبده ، ذلك أن عمله « بالعروة الوثقى » قد أحكم أواصر الودّ بينه وبين جملة من زعماء الإصلاح في العالم الإسلامي (10) .

فعنداً بيروت التي اختار أن يقضي بها مدة نفيه (11) ، كانت تونس . من بين جميع بلدان الإسلام آنذاك ، استهوته لما ظهر بها من بوارق العمل الإصلاحي الذي كان يذهب اليه . فكانت رحلته الأولى إلى تونس ترمي إلى تدعيم الصلة بين جمعية العروة الوثقى وبين أعضائها من التونسيين (12) .

ب) الأعضاء التونسيون لجمعية العروة الوثقى :

لذلك يجدر بنا أن نحدد علاقة التونسيين بجمعية العروة الوثقى وبمجلتها ولقد تجلّت هذه العلاقة بوضوح في زعيمين من زعماء الإصلاح بتونس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هما : بيرم الخامس وتلميذه وعضده الأيمن محمد السنوسي .

1 - بيرم الخامس (1840 - 1889) :

محمد بن مصطفى بيرم ، شهر بيرم V . هو ابن أخيه شيخ الإسلام الحنفي بيرم IV ومن مريدي الشيخ محمود قابادو وكان بحكم مزاجه أقرب إلى الأفغاني منه إلى عبده فكان مولعاً بالإصلاح السياسي قبل كل شيء

(10) لقد كان لجمعية العروة الوثقى بعد الاثر وابلغ الصدى في نفوس النشء في العالم الإسلامي : راجع رشيد رضا : تاريخ I ص 303 - 305 « كان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال والحركة والاشتغال ، ما قذف بي من طور الى طور » كذلك كان تأثيرها على الأمير شكيب أرسلان .

(11) تاريخ ج 1 : ص 390 - 415 : عمله الإصلاحي في بيروت .

(12) تاريخ I : ص 381 . لا شك انه اراد ايضا ان يرى عن كتب سياسة فرنسا نحو احدي مستعمراتها وهو الذي كرس حياته لتقريب الشقة بين الدولتين الاستعماريتين فرنسا وانكلترا وبين الشعوب الإسلامية . راجع : تاريخ 1 : ص 819 - 829 : جمعية الناليف والتقريب بين الاديان وتاريخ 2 : مناظرته مع جبرائيل هانوتو وزير الخارجية السابق بفرنسا ص 400 - 472 .

وكان العضد الايمن للجنرال خير الدين فشدّ أزره في إنجاز مشاريعه العظمى كانشاء المدرسة الصادقية وتأسيس الأوقاف وإصلاح التعليم الزيتوني وتنظيم المحاكم الشرعية وانشاء المكتبة الصادقية . وعهد اليه خير الدين بادارة المطبعة الرسمية وبرئاسة تحرير جريدة الرائد التونسي . كما عهد اليه بمهمّات خطيرة فسافر للتفاوض فيها إلى أوروبا مرارا (13) .

ولكن مساعي بيرم V منيت بالفشل وزادت صحته اعتلالاً وتضعفعا فزاد سخطه على الأوضاع بتفكك عرى العصابة الإصلاحية ، بسقوط خير الدين وتخليه عن الوزارة الكبرى سنة 1877 فعقد العزم على الهجرة إلى المشرق الإسلامي (14) .

والجدير بالملاحظة هو أن كفاح بيرم V قد اتصل واستمر خارج تونس : فبمجرد دخوله مصر للمرة الأولى سنة 1879 عمّر الوكر الذي خلا بسفر جمال الدين الأفغاني إلى الهند ونفسي محمد عبده إلى مسقط رأسه بمحلة نصر فاتصل بيرم V بعين الوسط الذي يحيط بالأفغاني وعبده في حمى الوزير مصطفى رياض .

ولقد اندلعت نيران الثورة العربية بمصر بعد أن فارقها بيرم V عنقب الأفغاني فلا غرابة ان عين التهمة التي سلطت على الأفغاني بتدبير تلك الثورة قد سلطت على الشيخ محمد بيرم من طرف السلطنة العثمانية لما عاد إلى استانبول آتيا من بلاد البلقان سنة 1881 .

(13) حيث تعرف بالزعيم الاصلاحى مدحت باشا مؤسس الدستور العثماني والملقب بابي الاحرار. كان ذلك مدة معرض باريس لسنة 1878.

(14) لقد هاجر خير الدين الى الأستانة سنة 1878 . لكن منذ تخليه عن الوزارة الكبرى عمت البلاد موجة من السخط تضاعفت بانتصاب الحماية الفرنسية مما جر جمهورا غفيرا من المصلحين الى الهجرة صيحة عمالهم الى المشرق والى الأستانة خاصة. ولقد ناصرت مجلة « المنار » لرشيد رضا هذه الهجرة (راجع عدد 37 . السنة الاولى) بينما كانت جريدة « الحاضرة » الجريدة التونسية الشبيهة بالرسمية تعنف اشد تعنيف هذه الهجرة.

ولقد بادر بالخروج من مصر والسفر إلى بيروت حيث أحكم أوامر الودّ بينه وبين « أبي الأحرار » مدحت باشا ثم سافر إلى الآستانة حيث التقى مع العصاة الإصلاحية التونسية المهاجرة وفي مقدمتها الجنرال خير الدين وأقام ثمّة عامين وانخرط في جمعية العروة الوثقى سنة 1882 (15) .

ثمّ إنّّه استقدم عائلته من تونس وارتحل ثانية إلى مصر حيث أقام حتى وفاته سنة 1889 وكان من جملة مشاريعه تأسيس جريدة اسبوعية ذات نزعة إسلاميّة شاملة : « الإعلام » .

وإذا كان الشيخ بيرم V لم يدرك جمال الدين الأفغاني بمصر ولم يتعرّف به أصلاً فانه يُحتمل كثيرا أنّه اتّصل بالشيخ محمد عبده في مصر مدّة إقامته الأولى بها سنة 1879 — 1880 (16) .

لكن الذي لا يحتمل الشك هو أن عبده كان محمّلاً عند زورته الأولى لتونس سنة 1884 برسالة خطيّة من بيرم V توصي به خيراً إلى الجنرال محمد البكوش ، مستشار الشؤون الخارجية بالحكومة التونسية (17) .

(15) راجع : الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : أركان النهضة الادبية بتونس : بيرم الخامس : ص 21 — 27 . مطبعة النجاح . تونس 1965 : راجع صفوة الاعتبار : ج 5 ذيل به ترجمة بيرم 5 . ط . القاهرة 1311 هـ .

(16) راجع : Elie Kedourie مجلة Orient عدد 31 . 1964 ص : 98 : « يقول الشيخ عبده مُسرّاً الى بلنت Blunt : لقد سُمّت الإقامة بقريتي وسافرت الى الاسكندرية حيث كانت الشرطة تشدد علي الحراسة ، لذلك كنت اذهب خفية الى طنطا حيث اقيم على وجهي (انظر التاريخ السري لبلنت ص 493

Bunt. Secret History

ثم ان عبده استقر بضواحي القاهرة عند رفاة بك وخرج من هذا الضيق بأمر من رياض باشا. » اهـ.

(17) راجع : Commentaire coranique du Manâr Jomier : ص 8 .
رغم عديد البحوث لم نعتز على هذه الرسالة.

2 — محمد السنوسي (18) : (1812 - 1900)

إذا كان بيرم V المشجع لعبده على هذه الزورة الأولى للبلاد التونسية فان الشيخ محمد السنوسي - وهو من أنشط أعضاء جمعية العروة الوثقى بتونس - قد كان المنظّم لهذه الزورة والساهر على توفير نجاحها .

كان محمد بن عثمان السنوسي . وهو من خريجي جامع الزيتونة ، من أخصّ أعداء بيرم V فكان . بحكم هذا الودّ ، كاتباً بإدارة الأوقاف ومحرراً بجريدة الرائد التونسي وهما مؤسستان كان يشرف عليهما بيرم V . ولما انفصل خير الدّين عن الحكم التّهبّت في نفس محمد السنوسي حميّة الحماس فدفعته به إلى إظهار شخصيته وأقبل على المؤسستين اللّتين بين يديه يعرض عليهما بالنواجذ ويذّبح عنهما ورجا أن يجد من الوزير الجديد مصطفى بن اسماعيل عوناً على تنفيذ مبادئه الإصلاحية ولكن هذا الطريق لم ينته به إلى الغاية التي أمل تحقيقها من وراء ذلك الإنتماء السياسي إلى ابن اسماعيل وكما شعر بيرم V بالخيبة وهجر البلاد فقد شعر محمد السنوسي بنفس الشعور فتحلّى عن مناصبه الإدارية وشدّ الرحال لهجرة طويلة كانت موضوع أثر تاريخي هام : « الرحلة الحجازيّة » (19) .

فخرج من تونس سنة 1882 وقصد إيطاليا ثم الآستانة حيث اتّصل برجال العصاة الإصلاحية التونسية مثل خير الدّين ورستم ومحمد العربي زروق

(18) راجع ترجمته : الفاضل بن عاشور : اركان النهضة الادبية بتونس ص 28 - 33 .

محمد النيفر : عنوان الاريب : ج 3 . ص 145 - 153 . طبعة تونس . 1932 .

محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . ج 1 . ص 416 - 417 . طبعة القاهرة 1931 .

(19) مخطوط بالحدودية : عدد 3346 . في ثلاثة اجزاء ، ح : 24 x 16 .

الجزء 1 : ص 1 - 181 : إيطاليا .

الجزء 2 : ص 1 - 279 : تركيا . الحجاز . سوريا . لبنان .

الجزء 3 : ص 1 - 259 : تراجم الرجال الذين اتّصل بهم السنوسي .

هذا وللشيخ محمد السنوسي آثار ادبية كثيرة مطبوعة نذكر أهمها :

مسامرات الطريف بحسن التعريف : تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحيية طبعة تونس : مجمع الدواوين : مخطوط لم يطبع منه الا جزآن متعلقان بالشاعر قابادو . تونس : المطبعة الرسمية

مطلع الدار في توجيه الشرع على القانون العقارى : تونس 1887 - 1888

الاستطلاعات الباريسية : تونس . المطبعة الرسمية 1871

وكان مأواه في استانبول كماوى أولائك السادة من قبله إلى ظل السيد محمد ظافر بن السيد محمد المدني المسراتي وهو معتقد السلطان عبد الحميد وصفية ونجيته (20). ومن الآستانة إلى جدة حيث أدى فريضة الحج وتمكن مدة إقامته بالحرمين الشريفين من معرفة اعلام من علماء الإسلام ومن المدينة رحل إلى دمشق حيث اجتمع بالأمير عبد القادر الجزائري وكان تقدم اليه بمكتوب من بيرم V وكانت مدينة بيروت خاتمة المطاف .

ولما رجع إلى تونس التحق بوظيفه الاداري الذي كان تخلى عنه بالأوقاف والجدير بالملاحظة ان الشيخ محمد السنوسي بعد رحلته واستقراره بتونس اصبح زعيم العصاةة الإصلاحية التونسية باطلاق (21) والداعي الأول لمجلة العروة الوثقى وجمعيتها .

ونحن نثبت هنا النص الكامل لرسالة (22) بعث بها الشيخ محمد السنوسي إلى الشيخ محمد عبده عند صدور الأعداد الأولى من مجلة العروة الوثقى وهي وإن كانت رسالة تقرير فهي شاهد بليغ ولسان حال العصاةة الإصلاحية التونسية بعيد انفصال خير الدين عن الحكم وغداة انتصاب الحماية بتونس ، إلى ما لها من قيمة فنية أدبية :

(وعند ما وصلتنا إلى الحاضرة التونسية (أي مجلة العروة الوثقى) كتبتُ في ذلك بما يوافق الغرض وهذا نص ما كتبتّه) :

« ما ذا يقول لسان أمة فؤادها عليل . قد منيت أطوارها بالتبديل . وتلاشت منها القوى ، وعظم بها الوجى . فأصبحت رهينة آلام ، أوهت منها قوة الاعتصام ، تطرف حدقاتها إلى نيل العز القديم ، [ص 182] مستكفة نحو شاحط ما شخص من ذلك الأديم . لا تستطيع اليه نهوضا ، وقد رأيت حبل اعتصامها منقوضا ، فعزّ دواؤها . واحاط بها اعداؤها ، وعدمت

(20) الرحلة الحجازية : مخطوط : ص 279

(21) لقد كان له اتصال متين بالقصر الملكي والعائلة المالكة : فهو استاذ الامير الشاب الناصر باي

راجع سلافة العناصر بمفاخر الملك الناصر لمحسن زكريا : ص . 49 تونس 1913 .

(22) مخطوط الرحلة الحجازية المذكور : ص . 181 - 186 .

النطاسي الماهر ، الذي تحتاجه للإبقاء على ما بقي لها في الظاهر ، وقطاحت
إليه اعناق الأطماع ، وامتدت لها الأعين بجميع وجوه الاستطلاع . هذا
وولاتها افضوا بجنوبهم الى فرش الارتياح ، بما يبعدون به عن موجبات حمل
السلاح ، اخلادا لما ينقص به ممالكهم من اطرافها ، ويضع من نفوس اشرافها
فاناطوا حبل رجائهم بأيدي الأعداء ، واعتاضوا الادواء من الدوا ، وخانهم
الامل ، وضعف العمل ، فاصبحوا وساء صباح المندرين ، تنتهشهم مخالب
ليوث العرين ، فالرأس فيه واضحه ، والجوارح اصابتها جارحه ، وبقية الجسد
بين جافة ومرضوخة ، ونفس متأوهة ودموع مفضوخة ، لا يعرب عن
ألم فؤادهم ، لسان ملوكهم وقوادهم ، إلا بما يضاعف عليهم الويل ،
ويجلب عليهم السيئ ، إلى حيث صاروا أخرس من جماد ، واذل من منفرد
الأوتاد ، اقترضوا الأموال فاستعبدتهم أرباب الديون (23) وعدموا منافع ثروتهم
في السهول والحزون ، وأخلدوا إلى الملذات ، فبدلت حسناتهم بالسيئات ،
وأضاعوا جميع موجبات الإرهاب ، من الاستعداد الذي جاء به الكتاب ،
فاستضعفهم أولو القوة بما يقضي بالعجب العجيب ، وأخطأوا سياسة الدين
بسياسات القوم الآخرين ، فاصبحوا عن كلا الطريقتين متنكبين ، وسقوا نشأة
أبنائهم ، بماء التعليمات التي ليست من مائهم ، ففقدوا من عروقهم
زُعاقا (24) ، وأدخلوا به على أهل ملتهم تفرقا وشقاقا ، وتلون أولو الأمر في
أثواب ليست من زيبهم ، فزادوا في الأمة غيا على غيهم ، واضطروا إلى أطوار
جلبت عليهم الأغيار [ص : 183] والأكدار ، بالإحتياج إلى الحماة والنظار (25)
في أكثر الاصقاع والأمصار ، فاستسهلوا إضاعة الأمة ، واستسلموا لقيادة

(23) يشير الى تفاقم الديون وعجز الميزان التونسي وانتصاب الكوميسيون المالي في عهد وزارة مصطفى خزنة دار (1853 - 1873) : راجع ابن ابي الضيف : تاريخ ج 5 ص 73 - 140 .
تونس 1964 راجع ايضا : E. Fitoussi , l'Etat Tunisien et le Protectorat Français. Paris 1931. et A. Benazet, T. I. p. 91-99.

(24) الزعاق : الماء المر لا يطاق شربه

(25) يشير الى انتصاب الحماية سنة 1881.

الأعشى في ليلة مدلهمة ، إلى أن أصبحوا طعمة للطامعين ، ومطعنا للطاعنين ، لا يذكرهم الذّاكرون إلاّ بما لهم لمذمته لا ينكرون ، ولا نجد لهذا الدّاء من علاج ، ولا مغلق ذلك الباب من انفراج ، ويا طالما سمعنا من وراء الحجاب ، صكة مستفتح من منشيء الصحايف العربيّة من ذوي الآداب فيكشف الغيب على أنها جعجعة ليس فيها طحين من طعام ، وما هي إلاّ ما نسمّيه للمصصيك (26) الكلام ، فيتدوّونها بالتوجيه وزخاريف الكلام ويجعلونها مصايد لحطام الأموال ولا يلبثون ان تذهب ربحهم ، ويخرس فصيحهم ، فلا يعود يسمع نبيحهم ، وتلك شنشنة سقطت بها همم أربابها ، واجتثوا ثمرة مذمتها وعتابها ، كيف والأمة العربيّة في هذا الزمان ، محتاجة إلى لسان ، يعرب عن الدّاء الذي تكنه في الجنان ، وينقذها من الانقياد إلى العميان ، بل انها اليد أحوج من حاجتها إلى الماء والهوا ، إذا لم تجد بدونه متنفسا ولا مساعدا للارتواء ، حتى أتاح هذا الدهر بصاحب العِرض الأنقى ، هذا الهاتف الذي صدع للأمة باسم العروة الوثقى :

لئن دجت الأحلاك بالغيه الأبقى وضلت حلوم بعد ان طرقت طرقا
فقد وضع الصبح الذي بان عندما أنيط جمال الدين بالعروة الوثقى (27)
العروة الوثقى لا انفصام لها ، والمشرّب الأنقى تبلغ به الأمة أملها ،
ناهيك به من عروة يتمسك بها أهل الهدى ، ويتقون بها الردى ، وينيطون
بها أمل الحياة فلا يذهب سعيهم سُدى ، قد إرتجفت لرجفه [ص : 184]
اصقاع الإسلام واحتجت لمقدماته العقلية فصحاء الأعلام ، ولو أن أهل النها
من رجال السياسة ، راعوا أشكاله وقياسه ، لما وقع على انفسهم منفعة الصّحبة
والإقتراب ولكن لله فينا علم غيب والكل إليه صائر ، يستوي في مآله جازع
وصابر ، أما نحلة النصائح التي أصبحت بين الأمة مورودة ، وكشفت عليها

(26) هكذا في النص

(27) البحر الطويل.

بفصاحة منشيها المعهودة ، فهي الصبغة التي لم يبلغ إليها سواه ، وعقله المستوفز (؟) إذا أراد أن يطيب بمدحها قلمه وفاه . إيه ويا لها من طريق إهتداء في مجاري السياسات ، التي تنكبها أهل الرياضات . أعذب في اللسان من المراشف ، وأطرب للأسماع من نغمات المعازف ، وأروق للأبصار ، من محيا وسيم زانه العذار ، ومن مخضل النبات المكسو بجميل الأخضرار ، ما شيت من أصول العمران ، وقواعد تمدن نوع الإنسان . وتنبه الغافلين من أهل الحضارة في البلدان . وجمع كلمة أهل الإيمان ، بما يتحدثون به للتعاون على مدافعة ذوي العدوان ، وما شيت من تحذير وانذار . يقع موقع الاعتبار ، من نفوس أهل الإستبصار ، في قوالب شتى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وما هو إلا طور في البلاغة عزيز . يفوق على خالص الإبريز . [خلدييه منشوه لنفسه ما خلده الأحمزون] (28) ، وبزّ الحسن موقعه ما الحم نسجه ابن خلدون ، فجاء نسيج وحده في كلّ غرض . يفني للمقصد بالمسنون والمفترض ، نسيج على أبداع منوال ، ممن استولى على قصب السبق من أهل الكمال ولعمري إن صحيفة محرّرها الأول الشيخ محمد عبده ومديرها السياسي الشيخ جمال الدين الأفغاني . لحرية بأن تكون أصل أصول جميع المباني ، [ص : 185] يتجبر بها الصّدّع ، ويجمل بها الصنع فهما ما هما وما أدراك ما هما ، دفعهُما بكل خير قد هَمّا ، ونفعهما قد عمّ من تحت السما . ولذلك برزت من بين يديها عروس الإنشاء والفصاحة ، تختال بحسن الرّجاجة ، وتنشر في أصقاع العالم من آيات جمالها كل ملاحه ، وماذا عسى أن يقول القاصر فيها ، والذي ملأ الأرض يكفيها ، جاءت بالسحر الحلال فراق موقعها عند أهل الكمال ، فحيّا كما الله يا مُحيا ميت الغيرة والحميّة ، وأدام تعاؤدكما لِمَا يثمر خير المصالح العموميّة ، قد أطلعني من نعيم من طليعته بالإقبال ، على ثلاثة الأعداد الأوّل من هاته الصحيفة التي جاءت بغاية الآمال ، بعد أن امتلأت

أسماعي بالثناء عليها ، ممن تخيرتموه كفؤا إليها ، فاذا مخبرها فاق الخبر ،
 وشتان بين العين والأثر ، سيما وقد جاءت طبق ما يخالج الصدر من أماني
 النفوس ، حتى قلت بعد مطالعتها لا عطر بعد عروس . ورفضت لإقبالها ما
 سواها ، مما لم تبلغ به الأمنية منها ، وحدتني النفس ، في ليلة أمس ، أن
 نكون لكم مساعدا بجهد المستطيع . وإن لم يدرك الطالع شأو الضليع ، إذ كثيرا
 ما نجد من حديث النفس مقدمات من تلك الأشكال ، ولم نجد لها موقعا من
 مواقع الحال ، حتى إذا رأيت آيتكم الكاملة . اشرب لها ما في الأفكار الخاملة ،
 فبادرت لكتب هذا المقال . عسى أن يكون وصلة وصال ، تنشر في تلك
 الصفحات . مع الصفح عمّا يقتضيه استعجال البريد وتزاحم الأوقات نسأل
 الله أن يديم هذا الصنع الحسن ، منفعة عامة إلى كل أبناء وطن ، وأن يجعله
 سعيا مقرونا بالنجاح ، وأملا موصولا باليمن والفلاح [ص : 186] ، وأن يكثر
 من أمثالكم في الأفراد . ونرجو أن لا تقطعوا عنا كل ما يصدر من الأعداد ،
 والسلام من العبد الضعيف محمد السنوسي الشريف خادم العلم الشريف .
 وفقهه الله . « أه .

ج) إقامة الشيخ عبده الأولى بتونس :

لعلّ مخطوط الرحلة الحجازية هو المصدر الوحيد الذي يخبر عن زيارة
 عبده الأولى لتونس (29) : فالرائد التونسي — الصحيفة الرسمية — لم يذكر
 شيئا عن هذه الزّورة . والصحافة العربيّة لم تظهر بعد بتونس ذلك أن أمر 14
 أكتوبر 1884 الذي وظّف ضمّانا ماليا مرّ هقا كان سداّ منيعا في وجه أيّة

(29) راجع : الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الادبية والفكرية في تونس : ص 42 - 44

طبعة القاهرة : 1956

: محسن زكريا : سلافة العناصر : ص . 49 - 57 . طبعة تونس . 1913

محاولة لإصدار صحيفة باللسان العربي (30) . لذلك رأينا أن نثبت على علاته خبر الشيخ محمد السنوسي الوارد في الجزء الثالث من رحلته الحجازية :

« لما أصاب أهلها [باريس] مرض الكوليرا خرج مصفف أحرف الصحيفة فعطلت وانتهر الشيخ محمد عبده فرصة ذلك لدخول تونس فدخلها في التاسع عشر من صفر الخير [6 ديسمبر 1884] وتلقاه الأمير علي باشا باي [1881 — 1902] في باردو وزار [ص : 187] ولي العهد بسانيته بالمرسى واستضافه الأخوان سيدي حسين باي وسيدي الناصر باي كما استضافه بالحاضرة كثير من أعيان العلماء وحضر عندي ليلة الأربعاء السادس والعشرين من صفر الخير [13 ديسمبر 1884] 1302 إثنين وثلاثمائة ألف واسترسل اجتماعنا به إلى أن قضى موسم المولد الشريف وسافر يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول قاصدا التوجه على طريق مالطة ونابلي ثم إلى باريس ورأينا منه أثناء ذلك تفوق الفكر وفصاحة اللسان وكمال الرواية واستحضار المسائل من العلوم العقلية ما تطابق المخبر والخبر ، واغنى بالعيان عن البيان ، مع ما له من الدهاء والتحنك بالتجارب

ومن عجيب أمثاله أنه أخبرنا عن بعض العلماء أنه لما اجتمع به فاتحه في مسائل سياسية فجري معه في ميدانها وبعد إنفصال المجلس بلغه أن الشيخ أخذ يخبر بعض مجالسيه بخبر المجلس ويتنصل من موضوعه . ثم نقل لنا عن الشيخ جمال الدين قصة القاعاني وهي أنه كان راكبا في بعض الليالي على حصان له في ليلة ماطرة مظلمة على سفح جبل وكان يسير الهويينا خوفا من الوقوع فضرط الحصان ثم لما سمع صوت ضراطه خاف منه فنكس ومن شدة خوفه أعاد الضراط وأعاد التنكيس واشتد خوف راكبه كلما زاد ضرطا فجعل يخاطبه بشعر من الفارسي معناه : « يا حصان ان كنت تخاف من

(30) ظهرت الصحف العربية الأولى كالحاضرة (1888) والزهرة (1890) بعد اسقاط الضمان المالي سنة 1887 .

ضراطك لماذا تضطرب ؟ وإن كنت ضارطا لماذا تخاف من ضراتك ؟ » . ثم قال لنا : « ان مثل هذا الشيخ وحصان القاعاني سواء ، يضطرب ويخاف [ص : 188] من ضراطه » . ولعمري ان بلاغة هذا المثل هي أجلّ موقعا في كثير من أحوال من نراهم ومع هاته المزايا التي رأينا عليها الرجل كان في غاية لطف الأخلاق والأداب والخبرة بأحوال السياسة الحاضرة وبذلك كانت جملة المجالس التي قضيناها معه في أخبار الحوادث الحاضرة مع ما يستحضره لها من الأخبار التاريخية حتى أن المرفع الحازم سيدي محمد الناصر باي (31) لما سمع منه أسرار الحوادث المصرية كلفه ان يحررها على الوجه الإجمالي بما يعلم به سرّ ما هي عليه ممّا يعدّ من عجائب الحوادث وهكذا كنا نسأله عن غيرها من الحوادث فيجيب أحسن إجابة » . أهـ .

(د) أصداء الزورة الأولى :

1 - أولى الحركات القومية غداة انتصاب الحماية :

لئن مكنت هذه الزورة الأولى المصلح المصري من تدعيم الروابط بينه وبين العصاةة الإصلاحية التونسية فانها اكتست بطابع التحفظ والتستّر : ذلك أن انشيخ عبده رغم اتصاليه بالباي وبأعضاء اسرته وبالنخبة الإصلاحية وإنه تحاشى مضايقة السلط الفرنسية بالظهور والخطب على المنابر . إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من الخوض في شؤون « السياسة الحاضرة » كما يقول السنوسي ، وخاصة ما حدث بمصر من ثورة عرابي ، ممّا يدفعنا إلى الاعتقاد — ومراسلته للتونسيين عقب زورته الأولى تشهد على ذلك — بأنّ هنالك علاقة متينة (32)

(31) تولى العرش من 1906 الى 1921

(32) راجع الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : الحركة الادبية (المرجع نفسه) : ص 44 : « وخلا (الشيخ عبده) في مجالس متواصلة بأعضاء العروة الوثقى ، في بيت الشيخ محمد السنوسي وتطلع حول الشكاوى والآلام من سوء حالة البلاد الاسلامية وتناولت احاديثهم ما بدا يفيض على مدينة تونس ، فيثير سخطها ونفورها من النظم البلدية الجافية للدين ، العاينة بالتقاليد ، وقد بدا القلق يظهر على البلديين من جرائمها ولم تمض على سفر الشيخ محمد عبده شهور عديدة حتى ظهرت في مدينة تونس حركة احتجاجية هائلة ارغمت الحكومة على الرجوع في مقرراتها وعلى تنقيح نظم البلدية ومجالسها . »

بين هذه الزورة الأولى واندلاع نيران حركة احتجاجيّة هائلة هي أولى الحركات القوميّة عقب انتصاب الحماية .

والجدير بالملاحظة أن عصابة الإصلاح وفي مقدّماتها الشيخ محمد السنوسي هي التي تزعمت هذه الحركة ودبرت خطوطها وحررت لوائحها وأمضت عليها وفاوضت أولى الأمر فيها كما انصب عليها - وعليها وحدها - سوط العذاب والعقاب من عزل وإقالة ونفي وإبعاد .

ولقد عقد الشيخ محمد السنوسي تأليفا في تاريخ هذه الحركة القوميّة يعتبر من أهمّ الوثائق (33) ، أسماه « خلاصة النازلة التونسية » ونظرا لطوله ، سنقتضب منه فقرات مقتصرين على الإشارة والتلميح دون الإطالة والتفصيل.

[ص : 27] « اعلم أن السبب الوحيد في هيجان التونسيين واجتماعهم انما هو صدور الرائد التونسي صبيحة يوم الخميس السادس عشر من جمادى الأولى سنة إثنين وثلاثمائة والف [2 أفريل 1885] متضمننا قانون المجلس البلدي وفي ضمنه وصايا دفن الأموات وتثقيل في استخلاص متأخرات خروبة الأملاك ومعلوم النظافة وأداء الطرقات مع ما سبقه من تغيير أثمان ماء زغوان إلى ما سلب حقوق مالكيه ونوازل أخرى كدّرت على الأهالي فتجمّعوا في يوميّ الخميس والجمعة وأجمعوا على مقابلة الباي في المرسى للشكاية مما صدر به أمره وجاء تخفيفه بناء على إذن الدولة للأهالي بأنّ ما يصدر به من الأحكام إنما يلزم الامتثال لمقتضاه بعد انقضاء الاجال المعينة » .

ويواصل السنوسي مبينا أن هذه الأجل التي يمكن فيها للعامة مراجعة الأوامر العلية هي ثلاثة أيام ثم يقول :

(33) الشيخ محمد السنوسي : خلاصة النازلة التونسية . مخطوط بالخطونبة عدد 3446 . يقع في 130 صفحة . (ح : 35 - 16) وبه في اوله قصيدة في المخترعات الجديدة (من 1 الى 26) راجع ايضا في هذه القضية : Honoré Pontois « Les Odeurs de Tunis » . p. 273-330. Paris 1889.

« ... لذلك أجمع رأي خاصة الأهالي فحرروا مكتوبين [ص : 28] بقلم العدل المسن الموثق الفرضي الشيخ عثمان كشك أحدهما مخاطبا به شخص الباي يعلمونه فيه بأنهم وافدون على المرسى بعد زوال يوم السبت بأربع ساعات لعرض شكايه وقد أبلغه التاجر علالة ثامر إلى الباي صبيحة اليوم حين كان بمحطة الشمندفير راكبا إلى باردو وقبله الباي بسرور والمكتوب الثاني فمضمونه وجهوه إلى الوزارة للاعلام الرسمي وعندما علم الناس قبول الباي لأشخاصهم افترقوا أحزابا في تشكيل الشكاية واختلفت مسالكهم فمنهم من اشتط في التعرض لأصول دولية وأكثرهم على الاقتصار على عرض شكايه في خصوص الجزئيات العارضة مع شرح بعض أحوال حلت بالبلاد وتعاطوا تصوير الشكاية كل على حسب ثم ما كان منهم إلا أنهم تحرروا لتحرير ما يكتبونه بتسليفي بذلك وأناشي الشيخ الحاج محمد الرياحي مقدّم طريقة التيجانية وعضو جمعية الأوقاف ببطاقة استدعاء بخط أمين العطارين الحاج حمده الجبالي أمضى معه فيها بعض قرنائه من المتحرّكين » .

ويواصل الشيخ محمد السنوسي سرد هذه الحوادث :

« وحررت لهم معروضا قرأته عليهم عند الزوال في مقصورة النوورية بجامع الزيتونة واقترحوا زيادات زدناها وعينوا كاتباً نسخه واجمعوا على أنني أتولى قراءته على شخص الباي ولما حضرنا للركوب إلى المرسى بعد الزوال بثلاث ساعات وجدت محطة سكة الحديد غاصاً بالأعيان ينتظرونني مع التزام جميعهم بالإقتصار على المعروض المذكور فكان أول كلمة اجتمعوا عليها وصححه أعيان منهم بعد أن أعادوا قراءته ولما وصلوا إلى المرسى توجهوا لسانية الوزير (34) وطلبوا منه أن يصاحبهم وبعد امتناعه طلب الإطلاع على المعروض فأرسلوا لي وقرأته عليه وبعد مراجعات توجه معهم وكان الباي في الانتظار على حسب المكتوب الذي قبله منهم فأحسن قبولهم وسمع مني معروضهم

وبكى لبكائهم وقال « الحق إني أولى منكم بالبكاء » وظهر عليه أسف عجز لا مقدرة معه ووعد الوفد بالاجابة على يد وزيره وسلمه له فشكروا وآبوا ينتظرون الفرج . وهذا نصّ المعروض المذكور [ص : 28 — 32] .

وقد أثبت السنوسي قائمة بأسماء الممضين على هذا المعروض وهم من أبرز أعيان العاصمة . ويواصل قائلا :

« ثمّ من الغد أجمعوا على كتابة ما حصل وتوجيهه رسمياً إلى الوزارة فكتبتُ لهم مكتوباً أمضاه من حضر من الخاصة وهذا نصّه.... » وأثبت في ذيل هذا المكتوب أسماء مئات من الممضين من أبرز عناصر الإصلاح وأعضاء جمعية العروة الوثقى نذكر من بينهم :

- المدرس الشيخ محمد النجار (35) .
- المدرس الشيخ سالم بوحاجب (36) .
- المدرس الشيخ أحمد الورتاني (37) .
- المدرس الشيخ الطاهر جعفر (38) .
- السيد حسونة بن مصطفى (39) .

ويتحدّث الكاتب بعد ذلك عن اعتراض المقيم العام لفرنسا بول كامبون Paul Cambon على الباي في قبوله المتظاهرين وإظهار المشاركة معهم (40)

(35) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية . ج I ص . 421 ، 423 . طبعة القاهرة : 1350 هـ

(36) شجرة النور (نفس المرجع) ج I ص 426 . 428

(37) شجرة النور (نفس المرجع) ج I ص 413 .

(38) مدرس بجامع الزيتونة

(39) وكيل الغابة كان من زعماء الحركة الاحتجاجية سنة 1885 وابتعد الى الكاف . ابنه خير الله بن مصطفى وحفيده الشاذلي خير الله وكلاهما لعب دورا هاما في تاريخ الحركة الاصلاحية فيما بعد .

(40) لا شك ان موجة الغضب كانت موجهة نحو شخص المقيم العام اذ هو الذي حمل الباي على اسددار امر 17 نوفمبر 1884 القاضي برفع سعر المياه بنسبة 60 0/0 ستين في المائة ولما صدر الامر الثاني في 2 افريل 1885 القاضي بتطبيق الامر السابق امتنعت اغلبية الاهالي عن امضاء العقود الجديدة مع شركة المياه فقطعت هذه عنهم الماء وكانت موجة الاحتجاج يوم السبت 4 افريل 1885 .

ولئن تراجع المقيم العام الفرنسي في بعض مقرراته فإنه انصرف إلى رؤوس الحركة فصبّ عليهم وابل الغضب والانتقام وصدّر يوم 21 ماي 1885 أمر بالرايد الرسمي يقضي بعزل محمد السنوسي عن وظيفه وإبعاده إلى قابس في الجنوب التونسي وعزل المدرّس الشيخ أحمد الورتاني رئيس الأوقاف وإبعاده أيضا إلى قابس وعزل حسونة بن مصطفى وكيل الأوقاف وإبعاده إلى الكاف .

وبقي الشيخ محمد السنوسي مبعدا ما يزيد على ثلاثة أشهر .

2 — المراسلات بين الشيخ عبده والعصابة الإصلاحية التونسية عقب هذه الحركة القومية الأولى :

إنّ رسائل الشيخ عبده عقب زورته الأولى لتونس الموجهة لزعماء الإصلاح التونسيين لا تدع مجالا للشكّ فهو تتبّع تطوّر الأحداث عن كثب وأظهر من المناصرة لمن حلت بهم النكبة ما تشهد به هذه الرسائل (41) . فليراجعها الباحث في الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا وإنما نحن نكتفي بتوضيح معتمّاه (42) ذلك أن الشيخ عبده لم يذكر أسماء مراسليه تحرّياً واحترازاً وتقيّة إذ كانت جمعية العروة الوثقى سرّية يخشى أن يُلحق أعضائها أذى أو إضطهاد من قبل السلط الحاكمة ببلدانهم .

ففي الرسالة (عدد 11 ص 560 . تاريخ II بتاريخ 15 الحجة 1302 / 25 سبتمبر 1885) الموجهة إلى الشاذلي بن فرحات (43) وهو من أبرز أعضاء العروة الوثقى وأخصّ أصفياء الشيخ محمد السنوسي ، يشير الشيخ عبده

(41) انظر : تاريخ 2 : ص 560 . 564 . رسائل عدد II ، 12 و 14 .

(42) ندين بالفضل في ذلك للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور عميد كلية أصول الدين ومفتي الديار التونسية

(43) يرمز إليه بـ : رش ي) وهو الحرف الاول والاخير من « الشاذلي » . كان الشاذلي بن فرحات عاملاً بالكاف .

إلى هذه الحركة القومية قائلا : « أمّا حادثة الشيخ (44) فقد مسنا منها ما مسّه ، ولم يكن ما وجدنا منه أقل ما وجدده ولم يغب عنا شيء من أطرافها . وقد جهدنا فيها ما استطعنا . وربما رأيتم أو سمعتم بما أطالت به جرائد باريز (45) في المدافعة عن الشيخين (46) وتعنيف الحكومة على ما فعلت » .

وفي الرسالة (عدد 12 ص 562) نفس المرجع) بتاريخ 22 ربيع الأول 1303/30 نوفمبر 1885) يرثي لموت الشيخ (احمد الورتاني) : « اشتدّ أسفي على فقد الشيخ الصالح أوسع الله من رحمته ونفعنا بطيب نيته أسفا على فقد حميّ لدينه . مخلص في يقينه » .

ثم يواصل الشيخ عبده قائلا : « أمّا ما ذكرت عن الشيخ الصغير [محمد السنوسي] فقد كان كتابك السابق يشير إلى رغبة منك في تعليق الأمر بك على أنّه لو لم يكن فيه مثل ذلك لما أخطأت الظنّ فيما كلفتك ولم أسْتَسْمِنَ ذا ورم . بل على الملى به سقطت . وإن ظني بك لفوق ما تروي عن نفسك ، ولكن دع عنك ما استصعبت من الأمر » .

ثانيا - الزورة الثانية :

1 - جبهة الخلدونيين والصادقيين :

واستمر الاتصال وثيقا بين الشيخ عبده في منفاه في بيروت وإبان رجوعه إلى مصر - وبين زعماء الإصلاح بتونس ، لا همّ لهم إلاّ الإصلاح الاجتماعي والديني .

(44) الشيخ احمد الورتاني المدرس ورئيس الاوقاف وعضو جمعية العروة الوثقى .

(45) « لما رأى المصلحون التونسيون ان مساعيهم باءت بالفشل . كونوا لهم هيئة معارضة ورجوا الصحافة الدفاع عنهم : وقد لبّت الصحافة المحلية والصحافة الباريسية ومن بينها

La Lanterne

هذا الرجاء . انظر La Lanterne عدد 2 اوت 1885 « نفس المرجع : Henri Pontois

(46) الشيخان احمد الورتاني ومحمد السنوسي

وكان أغلب المصلحين التونسيين من خريجي الزيتونة والمدرسة الحربية من جهة ومن أشهر العائلات بالحاضرة التونسية ومن أعلق الناس بالوظيفة العمومي من جهة أخرى فاعتمدوا المسألة والتحفظ ولم يجنحوا إلى العنف حتى لا يقالوا عن وظائفهم الإدارية . وانضمّ إلى هؤلاء عنصر جديد ، التحق هو أيضا بالوظيفة العمومي . وهم قدماء الصادقية الذين أتموا دراستهم بجامعات فرنسا وعمل جميعهم على مواصلة السير في طريق خير الدين وقابادو فتكون من التمام العنصرين جبهة منيعة تزعمها رجلاّن من أخطر رجالات الإصلاح بتونس : الشيخ سالم بوحاجب (47) . رئيس العصابة الزيتونية والبشير صفر (48) ، رئيس الصادقين .

أ) جريدة الحاضرة :

فلما تألفت كتلة رجال النهضة ، بانضمام العنصر الصادقي إلى النخبة الزيتونية وخريجي المدرسة الحربية ، أحسّت تلك الكتلة بأنّها في حالة عزلة لا تسمح لصوتها بالإمتداد ، إذا هي صدعت بدعوتها فعاودت بالذكرى فترة عملها المنصرمة قبل الاحتلال أيام كانت جريدة الرائد التونسي بيدها . تشيع أفكارها وصححت العزم على أن لا طريق لاستعادة العدل المنقطع إلاّ بتأسيس صحيفة تتجدّد بها الدّعوة فتأسست جريدة أسبوعية « الحاضرة » (49) صدر العدد الأول منها في الثامن والعشرين من أوت سنة 1888 وإذا أنيطت مهامّ الإدارة إلى علي بوشوشة . فان الجبهة المتألّفة من النخبة الإصلاحية

(47) الحركة الادبية : نفس المرجع . ص 41 - 80 واركاز النهضة : نفس المؤلف والمراجع : ص 16 - 20 شجرة النور الزكية : لمحمد مخلوف : (نفس المرجع) . ج I ص 426 - 428

(48) عن البشير صفر : انظر اركان النهضة : ص 34 - 38

(49) لقد كان الوزير المقيم العام الفرنسي Roustan مناهضا لظهور صحافة باللسان العربي . ولما خلفه بول كامبون P. Cambon انتقل كاهل الصحافة بالضمّان المالي سنة 1884 فلم تظهر اية صحيفة باللسان العربي ، عبدا الرائد الذي استمر على الصدور منذ 1860 . وفي عهد الوزير المقيم الثالث ماسيكو Massicault الغى الضمان المالي سنة 1887 فظهرت جملة صحائف عربية كالحاضرة ونتائج الاخبار والزهرة ...

جعلت منها منبرا تصدع من أعلاه بدعوتها . ولم تمض سنتان على إصدار الحاضرة حتى ظهرت جريدة ثنائية باللسان العربي « الزهرة » (50) تؤازرها وتدعو إلى الإصلاح وإن كانت إلى التطرف ومهاجمة الحكومة أقرب ، بينما كانت الحاضرة بمجاملة السلط الحكومية وبالاعتدال أعلق :

ب) الخلدونية :

واتجهت الأنظار إلى المبدل الذي قامت عليه أسس الدعوة الإصلاحية من عهد قبادو وهو إدخال لقاح العلوم الكونية والرياضية على الثقافة الإسلامية . خصوصا وإن ما وقع بمصر من إدخال تلك العلوم في مناهج التعليم بالأزهر ، بسعي الشيخ محمد عبده (51) كان مثالا جديرا بالاعتداء . ثم إن المقيم العام الفرنسي René Millet الجديد كان سلك سياسة التألف والتقارب بين العرب وفرنسا ، مما شجع عصابة الإصلاح بتونس على انشاء مؤسسة خطيرة سنة 1896 وهي « الجمعية الخلدونية » للعمل على بث العلوم العصرية باللغة العربية ، سدا للشغرة التي كانت في تعليم جامع الزيتونة .

وسرت في جامع الزيتونة هذه الروح الجديدة (l'esprit nouveau) مما دفع بأولي الأمر إلى النظر في تحويل نظام التعليم بالمعهد الزيتوني واعتبار المدرسة الخلدونية مدرسة حرة يعهد إليها بتهيئة الطلبة الزيتونيين .

ولئن أولى المصلحون التونسيون قضية التعليم كل الاهتمام فانهم مفتحوا ، إلى جانب هذا الجهاد ، يجاهدون من أجل قضية ثانية لا تقل أهمية عن الأولى وهي الإصلاح الديني وتصفية الإسلام مما علق به من ادران التقليد والجمود .

(50) اصدر الزهرة سنة 890 محمد الصنادلي وهو تلميذ لبيرم 5 . وعطلت جريدته موقنا سنة 1896

(51) تاريخ I : ص 425 - 600 (اصلاح الازهر)

2 - مجلة المنار :

والحق أنهم كانوا في ذلك ترجيعا لصدى « مجلة المنار » التي برزت منذ سنة 1898 بسعي من رشيد رضا وبوحي من الشيخ محمد عبده . وعلى عكس مجلة العروة الوثقى ، فلقد كان لمجلة المنار بديع الأثر وبعيد الصدى في أوساط العصاة الإصلاحية بتونس (52) وليس أدل على اهتمام المنار بشؤون الإصلاح بتونس وعلى شغف المصلحين التونسيين بالمنار من قضيتين شغلنا التونسيين والمنار ، قبيل زيارة عبده الثانية لتونس : وهما قضيتا الشيخين الثعالبي وشاكر .

أ - الثعالبي (53) :

وهو من الذين تخرجوا على الشيخ سالم بوحاجب والبشير صفر ، فبعد أن انخرط بعدد من الجمعيات الإصلاحية وراسل عددا لا يحصى من مجلات الشرق ، أسس سنة 1895 جريدة أسبوعية « سبيل الرشاد » (54) ، ولكن جريدته لم تعدر طويلا فاضطر إلى الارتحال إلى المشرق الإسلامي حيث تعرف على الشيخ عبده بالقاهرة . وعاد إلى تونس سنة 1902 متأثرا بدعوة الشيخ عبده الإصلاحية فاحاطت به هالة من أهل العلم والأدب ، أصبحت له الزم من ظله ولكن المحافظين كانوا له بالمرصاد وبدؤوا يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة والأولياء والكرامات ويشيعونها على وجهها أو على غير وجهها ، مما أدى إلى محاكمته ، فيما بعد ، سنة 1304 (55) .

(52) انظر مجلة المنار : مجلد 5 جزء 22 . ص 880 (14 فيفري 1903) : يقول رشيد رضا منوها بالإصلاحيين التونسيين : « وجاءنا من تونس ان الجزء الواحد من المنار يدار على عشرات من الناس »

(53) انظر اركان النهضة للشيخ الفاضل بن عاشور (نفس المرجع) ص 44 - 48 : « ترجمة الثعالبي بقلمه وخطه : مخطوطة بقسم الوثائق . كتابة الدولة للاخبار - تونس »

(54) لم يصدر منها الا تسعة اعداد . العدد الاول بتاريخ : 16 ديسمبر 1905 .

(55) انظر ملف هذه القضية : تقرير الكولونيل بارون Rapport du Colonel Baron قسم الوثائق كتابة الدولة للاخبار - تونس .

والجدير بالملاحظة أن مجلة المنار ناصرت الثعالبي ولا أدلّ على ذلك من نشر رسالة طويلة له يعبر فيها عن مرير شكواه من الحياة الفكرية بتونس فليرجع إليها القاريء . حيث أنّها مثبتة بالمنار (56) ولا فائدة من إيرادها هنا .

ب — محمد شاكر (57) :

كان الشيخ محمد شاكر استاذا زيتونيا بمدينة صفاقس ومن الدعاة المخلصين لمنهج الشيخ عبده ولمجلة المنار ، فحمل في دروسه بصفاقس على البدع المنكرة التي التصقت بالدين الإسلامي والمتنمّية آنذاك بصفاقس من زيارة قبور الأولياء والإيمان بأراجيف أصحاب الطرق « والزوايا » ، ممّا مكّن المحافظين من الوشاية به وتقييح عمله فأقيل من التدريس وجرد من « شهادة التطويع » ، في الأيام الأولى من شهر جانفي سنة 1903 ، قبيل زورة الشيخ عبده بشهور .

وناصرت مجلة المنار هذه القضية وشدّت أزر الشيخ محمد شاكر (58) فليراجع الباحث ذلك .

3 — المراسلات بين المصلحين التونسيين وبين الشيخ عبده قبيل زورته الثانية :

فنى إذن أن التونسيين ، قبيل زورة الشيخ عبده الثانية لتونس سنة 1903 ، كانوا منقسمين إلى شقيّين متقابلين : فمن جهة فئة قليلة مشتتة القوى ،

(56) مجلة المنار : مجلد 4 ج 2 (14 افريل 1903) . ص 74 - 78

(57) ترجمته بمناسبة وفاته : جريدة « الصباح » التونسية : عدد 4 افريل 1963

(58) مجلة المنار : مجلد 5 ج 13 ص . 837 - 838 . وج 14 ص 871 - 874

رغم مؤازرة خفيّة من سلط الحماية الفرنسية (59) وهي فئة المحافظين من أهل الجمود الذين كانوا ترجيعا ليس إلاّ كصدى الصحافة المصرية المناوئة للشيخ عبده ، ومن جهة أخرى عصابة الإصلاح وهي أكثر عددا ، وأقوى عدّة ، ملتفتة حول الشيخ سالم بوحاجب والبشير صفر . والجدير بالذكر هو أنّ عصابة الإصلاح سهرت على توثيق الصلة بينها وبين المصلح المصري ولا أدلّ على ذلك من مراسلات خصبة كانت تدور بينهما . وهاتان رسالتان تشهدان بليغ الشهادة على ذلك .

فالأولى رسالة الشيخ سالم بوحاجب في تقرّظ رسالة التوحيد بعث بها إلى الشيخ عبده سنة 1899 وقد أثبتتها رشيد رضا في تاريخ الشيخ عبده (60) فليرجع إليها القاري .

والرسالة الثانية صدرت سنة 1900 عن مصلح كان من أفضاذا العلماء بجامع الزيتونة وهو الشيخ محمد النخلي (61) القيرواني وهي رسالة من الأهمية بمكان ، لم تقتصر على التقرّظ لرسالة التوحيد ، بل تجاوزت ذلك إلى النقد التزيه الجريء ، في خصوص قضية التوكيد في القرآن ، فأثبت الشيخ النخلي جوازه بينما أقرّ الشيخ عبده إنكاره ، ممّا جعل هذا الأخير يجرّد قلمه للردّ على مراسله وشكره على رسالته . فليرجع الناظر إلى جواب الشيخ عبده (62) .

(59) لقد اولت الصحافة الاستعمارية بتونس قضية الشيخ شاکر اهتماما بالغا : راجع La Dépêche Tunisienne عدد II جانفي 1903 . وتبع هذا ، على صفحات هذه الجريدة مناظرة بين مراسل الجريدة وهو علي محايي ومدير جريدة المأصرة السيد علي بوشوشة ، في خصوص « طريقة العيساوية » والملاحظ ان جريدة La Dépêche كانت تدعو في هذا الصدد ، الى ابقاء هذه الطريقة وما شاكلها لاغراض سياحية (هكذا) : انظر اعداد La Dépêche Tunisienne 25 و 27 مارس 1903 و 8 و 9 افريل 1903 .

(60) تاريخ I : ص 784

(61) راجع ترجمته : التقويم التونسي للشاذلي بلحسن . سنة 1225 - 226 (1344 هـ) ص :

275 - 279 بمناسبة وفاته وبه صورة الفقيه تونس 1925

شجرة النور الزكية ص 425 - 426 ج I طبعة القاهرة 1350 هـ

(62) تاريخ I . ص 585 - 587 . رسالة عدد 24 .

ونحن نثبت هنا نصّ رسالة الشيخ محمد النخلي التي لم ننشر وهي مخطوط (63) ، لما لها من القيمة التاريخية والأدبية :

رسالة الشيخ محمد النخلي إلى الشيخ محمد عبده :

1 - [الديباجة] : مقام الأستاذ العلامة والنحرير الفهامة . محيي رسوم التقدم الإسلامي ، ورامي فكره السامي إلى أسمى المرامي . نصّوح الإسلام ، وممزق غياهب الأوهام ، عين أعيان الأمة ، الذي آسى الداء وكشف الغمة ، الشيخ سيدي محمد عبده مفتي الديار المصرية بلغه الله مناه في رفع منار الإسلام ، وحياه على تحيته الحسنة بأبلغ تحية وسلام .

أمّا بعد ، فاني العبد من عشاق فضيلتكم العلمية ، وبالأشواق إلى تحريراتكم الفائقة السنية .

وكم من محب قد أحبّ وما رأى وعشق الفتى بالسمع مرتبة أخرى (64)

2 - [تقرّظ رسالة التوحيد] : حبّذا التحرير والتجوير ، والتطبيق على الروح العصري تطبيق النطاسي الخبير ، لا سيّما رسالة التوحيد ، التي هي في كتب الكلام جوهر فريد ، بل اختراع جديد ، على أسلوب سهل ممتنع مفيد ، يدل على باعٍ طويل مديد ، وقد اتهمها بعض الجهلة فقمت بناصر الحقّ وقرّرت له ما نمتّقم في الحسن والقبح العقليين وأنّ ما ذكرتم فيها هو زبدة ما ذكره ابن الهمام (65) في المسايرة وما يبتّسم في مسألة الكسب وتنزيل تقريركم على مقالة إمام الحرمين التي يجب أن تعتمد فتعتقد وان تؤول عبارة الأشعري حتى ترجع إليها كما صنع بعض الأعاجم وإلاّ فهو مذهب لا حاصل له إلاّ الجبر والأشعري أجلّ من أن يرتكب المغالطة في التعبير ميلا إلى مذهب

(63) لقد تفضل الشيخ البشير النيفر المفتي المالكي وأستاذ التعليم سابقا ، فمكننا من نسخها .

(64) البحر الطويل.

(65) ابن الهمام : كمال الدين محمد بن همام الدين بن عبد الحميد بن الهمام السيواسي الاسكندري الحنفي مات بالاسكندرية عام 1366/788 صاحب « المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة » .

الجبر . وقد أوضحتم به مسألة الرؤية والكرامة فلمعري ان تلك الرسالة هي خلاصة علم الكلام ، التي من تحققها شفهي من أمراض الأوهام . ولولوع العبد بهاته الرسالة كتبتُ على نسختي هذين البيتين :

رسالة توحيد على مذهب السلف معانيها في الألفاظ كالدر في الصدف
تأملها يشفي غليل الذي غدا عيلا بأدواء الشكوك فلا تخف (66)
فلو جعلت أساسا للتعليم لاسترحنا من كتب قشرها أكثر من لبابها ولكننا
بلىنا بتقليد كل قديم والشغف بالثناء على العظم الرميم .

3 — [مسألة التوكيد في القرآن] : أمّا دروس التفسير فانها حرية أن تكتب بالنضير على ورق الحرير ولهذا لم أزل أطالعها من مجلة « نور الإسلام » ، واقتطف منها الزهر في الأكمام ، بيد أن قصوري وقف بي على ساحلها فتوقفت في إنكاركم أن يكون الرحيم توكيدا للرحمان ونسبتم الجلال المحلي (67) والصبان (68) للغفلة التي قلما يوصف بها إنسان . وقلت : انه لا يجوز لمسلم أن يعتقد أن كلمة بل حرفا في القرآن ورد لمعنى غير مقصود وهو سند منكم التوكيد في الكتاب المجيد .

ومثار توقف العبد ثلاثة أمور :

الأول : إنه قد ورد في القرآن تعدد التوكيد المعنوي بحيث لا سبيل إلى إنكاره كقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » ، « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » إلى غير ذلك . والتوكيد المعنوي من وادي التوكيد اللفظي حتى انتهما يتفقان في كثير من الأغراض فاذا امتنع التوكيد اللفظي امتنع عليه واللازم باطل فكذا الملزوم .

(66) البحر الطويل.

(67) جلال الدين المحلي الشافعي . م . 1459/864 صاحب كتاب « النسخ والنسخ »

(68) ابو العرفان محمد بن علي الصبان : م . 1792/1206 صاحب الرسالة الكبرى في البسملة والحمدلة .

الثاني : قد ورد قطعياً ورود حروف الصلة وفي الكتاب كقوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده » « كفى بالله شهيدا » . وشواهدا أكثر من أن تحصى وحروف الصلة لا معنى لها إلا التوكيد على ما صرح به المولى الفتتراني (69) في بعض كتبه الأصولية فإنه قال : « إذا قيل ليس زيد بقائم فكأنه قيل ليس زيد قائما ليس زيد قائما » .

الثالث : لا نسلّم أن التوكيد لمعنى غير مقصود حتى يلزم محظورية وقوعه في القرآن بل التوكيد لمعنى مقصود . ويدلّ على هذا تعرّض علماء المعاني للمزايا والخواصّ التي تُقصد بالتوكيد في غير مبحث أخصّها أحوال المسند إليه . ومن المعلوم أن تلك الخواصّ هي المعاني الثانوية التي يتنافس فيها المتنافسون من البلغاء . فمن أغراض التوكيد تقرير المعنى وتثبيتها في الذهن فيجوز أن يكون الرحيم توكيدا للرحمان لهذه النكتة بمعونة أن الآية وردت للردّ على المشركين في اعتقاد التعدّد . ولهذا كانت على أسلوب القصر بتقديم الظرف على ما اختاره صاحب الكشف (70) .

ومناطق إشكال العبد نفى التوكيد عن القرآن ، وهو من الصعوبة بمكان . هذا ما أُورِدَ على كلام الأستاذ رجاء أن يصدر الجواب بكشف الحجاب أمّا الوجه الذي انفصلتم فيه فوجه جميل وتخريج جليل وقد صرح به التاج السبكي في الطبقات حيث قال : « رحمان فعّالان مبالغة في كثرة الرحمة ولا يلزم من الكثرة الدوام كغضبّان وفعل الدوام الصفة كظريف فكأنه قيل العظيم الرحمة الدائمها » .

ثم المؤمل أن لا نزال نطالع نفائس التفاسير ، وبدائع روائع التقارير والسلام في ربيع الأنور عام 1318 (جويلية 1900)
محمد النخلي

(69) سعد الدين مسعود الفتتراني . رم . 1320/792 صاحب كتاب تهذيب المنطق والكلام وكتاب مقاصد الطالبين ، في علم أصول الدين .
(70) أبو القاسم محمود الزمخشري م . 144/538 صاحب كتاب الكشف عن حقائق التنزيل وعبود الاقاول في وجوه التاويل.

4 - إقامة الشيخ عبده الثانية بتونس (9 - 22 سبتمبر 1903) .

وكان هذا التأييد الشامل لدعوته الدافع (71) بالشيخ عبده إلى أن يزور ثانية البلاد التونسية في صائفة 1903 ، بعد أن أقام برهة باوربا وعرج ، قبل دخول تونس ، على الجزائر (72) ، ولقد احتاط الشيخ عبده ، قبل عودته لتونس وزيارته للجزائر ، درءاً لسعايات المغرضين ، فسلك في مجلة المنار سياسة المجاملة نحو فرنسا (73) .

وكان وصوله إلى تونس يوم الاربعاء 9 سبتمبر 1903 .

ومغادرته لها يوم الخميس 24 من الشهر نفسه .

وقد أسقطت عنا جريدة « الحاضرة » الأسبوعية مؤنة التقصّي والإستقصاء ، إذ أنّ مديرها علي بوشوشة وهو عضو الجمعية الخلدونية ومن أبرز عناصر الحركة الإصلاحية ، قيّد بجريدته كلّ تفاصيل هذه الزورة الثانية بما يشمل ذلك من اتصالات رسمية وغير رسمية ومن مآدب أقيمت على شرف الضيف الشهير ، ومن قصائد وخطب القيت ترحيباً به ، إلى جانب الدرس العام الذي ألقاه الشيخ عبده بالخلدونية عشية الأحد 20 سبتمبر 1903 فليرجع الباحث إذن إلى جريدة الحاضرة (74)

(71) لقد كان لرحلة محمد فريد بك ، رئيس الحزب الوطني . لتونس سنة 1902 بليغ الانثر وبعيد الصدى في مصر ولقد اودع ارتساماته في كتاب : « من مصر الى مصر » ج 2 مطبعة الموسوعات بشوارع باب الخلق بمصر سنة 1319

(72) انظر : Ali Merad : l'enseignement politique de Abduh aux Algériens. Confluent : N° 42-43 (juin-juillet 1963) p. 644-679.

(73) تاريخ ، I ، 870 - 874 . ومجلة المنار : (مجلد 4) ج 13 . ص 540 . وج 2 . ص 80

(74) انظر : الحاضرة : عدد 860 السنة 17 ، الثلاثاء 8 سبتمبر 1903

عدد 861 » » » 15 سبتمبر 1903

عدد 862 » » » 22 سبتمبر 1903

عدد 863 » » » 29 سبتمبر 1903

عدد 867 » » » 27 أكتوبر 1903

والجدير بالملاحظة ، أن شقّ المحافظين المخالفين لمنهج الشيخ عبده قد انضموا من باب المجاملة إلى عصابة المصلحين وحضروا جملة مآدب ومجالس ترأسها الشيخ عبده . ولم نعثر في بحوثنا إلاّ على وثيقة واحدة تشير إلى هذا الاختلاف (75) . فأنّه حدثت مشادة عنيفة ، في إحدى المآدب ، بين الشيخ محمد عبده والشيخ صالح الشريف (76) وهو مدرس بالزيتونة ، كان من المخالفين لمنهج المصلح المصري . وكان موضوع الخلاف ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهّاب فشنع صالح الشريف على ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهّاب في إنكارهما زيارة قبور الأولياء عامّة وزيارة قبر النبيء (صلعم) خاصّة . ونهض الشيخ عبده للدفاع عن ابن تيمية مقررًا « أن خلاف ابن تيمية مع بعض أهل السنّة لا يخرجّه عن كونه منهم » وبأنّه « ينبغي أن تؤخذ آراؤه من كتبه لا من كتب أعدائه » . ثم فكّك الشيخ عبده بين الوهابية (77) ومذهب ابن تيمية وإن لم ينكر الصلة بينهما .

5 - أصدء الزودة الثانية :

أ - الفتوى الترانسفالية :

وأعقب رجوع الشيخ عبده من تونس ، قيام ضجّة هائلة حول مسألة الفتوى الترانسفالية (78) في أواخر سنة 1903 وهي التي أجاز فيها الشيخ عبده

(75) لقد تفضل الشيخ محمد الفاضل بن عاشور فاطلنا على مذكرة من تحرير والده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أثبت فيها ما رآه وما سمعه في المادبة التي حضرها الشيخ عبده يوم 16 سبتمبر 1903 بدار الشيخ محمد محسن الأكبر بتونس .

(76) انظر : شكيب ارسلان : السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة . ص 147 . دمشق 1937 الفاضل بن عاشور : المجلة الزيتونية . مجلد 8 ج 2 . ص 78 75 عدد افريل 1952 مجلة المنار : مجلد 13 عدد 6 (جولية 1910) . ص 419 - 423 . مجلة المنار : مجلد 12 عدد 18 (جوان 1909) ص 393 - 396 .

(77) لقد كانت مشادة عنيفة فيما بعد سنة 1907 بين صالح الشريف ورشيد رضا بجامع دمشق : انظر المنار : مجلد 12 ج 18 ، واتهم فيها صالح الشريف صاحب المنار بأنه على مذهب الوهابيين

ومناهضة التونسيين الوهابيين ترجع الى عهد حمودة باشا (1782 - 1813) حيث كلف الشيخ عمر المحجوب بتحرير رد على رسالة الوهابي . انظر تاريخ ابن ابي الضياف : ج III ص 60 75 تونس 1963 (رد المحجوب) ج 7 ص 52 - 55 تونس 1965 (ترجمة المحجوب)

(78) تاريخ I : ص 618 - 717 . والترانسفال هي مقاطعة بالاتحاد الافريقي الجنوبي عاصمتها برتريا ونزح اليها اواخر القرن 19 مستعمرون من الانجليز والهولانديين

لبس المسلم القبعة وأكله ذبائح النصارى التي لا تتوفر فيها شروط الذكاة الإسلامية . ولقد اغتنم الخديوي عباس حلمي هذه الفرصة للتشجيع على الأستاذ الإمام ونهضت لذلك الصحافة المصرية المناوئة للمصلح المصري كاللواء والمؤيد والظاهر والحمارة وشدّت أزر عبده الاهرام والمنار والمقطم .

ولقد شدّ أزره المصلحون التونسيون يتقدمهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور . فبعث إليه برسالة فقهية في تأييد الفتوى على المذهب المالكي (79) .

ب - مجلة السعادة العظمى :

واغتنمها المحافظون الرجعيون التونسيون فرصة للتشهير بهذه الفتوى والردّ عليها وعلى صاحبها . ولقد كانت زورة المصلح المصري الثانية لتونس وحدّت صفوف حركة المعارضة ، ممّا حداً بهؤلاء ، عند رفع الضمان المالي نهائياً عن الصحف سنة 1904 (80) إلى تأسيس مجلة فكرية - الأولى من نوعها باللسان العربيّ في تاريخ الصحافة التونسية - مجلة « السعادة العظمى » (81) جعلوا منها منبراً يصعدون من أعلاه بأرائهم . ولقد تولى إدارتها الشيخ الخضر بن الحسين (82) وهو رجل أخصّ ما يمتاز به الاعتدال وأناطوا الاشراف عليها إلى عالم كبير القيمة شهير الإسم تلتف حوله عناصر حركتهم وهو الشيخ محمد النجار . فانتصبت هذه المجلة تردّ إذن على الفتوى (83) وعلى الشيخ عبده . إلاّ أنّه لا يسعنا إلا الإقرار بما اتسمت به هذه المجلة من

(79) المنار : مجلد 6 ج 24 (3 مارس 1904) ص . 927 - 938 رضى الرسالة الفقهية في تأييد الفتوى للطاهر بن عاشور .

تاريخ 1 . ص 717 . (إشارة الى هذه الرسالة) . ولقد اثبت رشيد رضا فصلاً مقتضباً من صفوة الاعتبار للشيخ بيرم 5 ذهب فيه المصلح التونسي ، استناداً على المذهب المنفي وقبل صدور الفتوى بما يزيد على خمس عشرة سنة ، الى رأي الشيخ عبده في ان ذبائح اهل الكتاب حلال في الشرح الاسلامي . راجع : تاريخ 1 ص 685 - 686 .

(80) في عهد الوزير المقيم العام الفرنسي Stéphen Pichon

(81) جريدة نصف شهرية صدر منها 21 عدداً (مارس 1904 - فيفري 1905)

(82) انظر ترجمته : زين العابدين السنوسي : الادب التونسي في القرن 14 هـ . ج II ص 193 - 204 . مطبعة العرب . تونس . 1927/1346

(83) مجلة السعادة العظمى : اعداد 7 ، 8 ، 9 و 10 .

تسامح ، رغم ذلك ، ومن إرادة صادقة في التقارب بين الشقيين المختلفين
ففتحت أعمدها للمصلحين والتقى الجمعان على صعيد واحد وهو الجدال الصادق
قصد الفوز بالحق .

الخاتمة

وبرفع الضمان المالي عن الصحف إطلاقاً ونهاياً ، إزدهرت الصحافة
التونسية العربية إزدهارا لم تعهده منذ انتصاب الحماية فاندفعت تخوض
مشكلة الإصلاح مؤتمّة في ذلك بهدي الشيخ عبده ، عدا قلة قليلة من
الصحف (84) .

ولم تمض سنتان على رجوع الشيخ عبده من تونس حتى أتى نعيه في
11 جويلية 1905 فعمّت العصابة الإصلاحية التونسية موجة من صادق الأسي
وان من يقف على المراثي والمقالات والرسائل التونسية التي انشئت في تلك
المناسبة ليدرك أنها تمثل عنصرا هاما من مميزات الأدب التونسي في هذه
الحقبة من التاريخ فليرجع إليها الباحث (85) .

فنستخلص ، من استعراض هذه المصادر ، أن كفاح الشيخ محمد عبده
منذ انفصاله عن الأفغاني سنة 1884 ستقى في صعيد واحد مع كفاح العصابة
الأصلاحية التونسية التي بقي عملها امتدادا لدعوة خير الدين وقابادو . فسعوا
جميعا إلى تحقيق هذا الهدف الأسمى وهو تحرير الفكر الإسلامي من
التقليد وتمكين الشعوب الإسلامية — عن طريق التربية والتعليم وإقحام
عناصر قوة الغرب — ، من « الحوار الحق » مع العصر الحديث .

(84) اظهر الحق : جريدة تونسية لاحمد القبايلي لم تعمر طويلا صدر العدد الاول منها يوم

الثلاثاء 10 ماي 1904 . وكانت مناهضة للمنازل وللشيخ عبده .

انظر المنار : مجلد 7 ج 16 (25 أكتوبر 1904) ص 635 - 637

(85) تاريخ 3 : ص 123 - 129 : تابين جريدة الصواب عدد 68 لمحمد الجعابي

ص 119 - 123 : تابين الحاضرة لمحمد بن الحوجة

ص 294 - 276 : تابين الطاهر بن عاشور

ص 296 - 297 : تابين : محمد شاكر (صفافس)

ص 364 - 365 : رثاء عبد العزيز المسعودي

ص 397 - 398 : رثاء الطاهر بن عاشور